

الحاجة إلى الرّسل

بقلم الشيخ
سماح خليل (القطا)

- (١) ولد في شنشور — محافظة المنوفية — سنة ١٣٤٥ هـ ودرس في مصر.
- (٢) تخرج من كلية أصول الدين وحصل على تخصص التدريس سنة ١٣٧١ هـ .
- (٣) أعير للمملكة للعمل بالمعاهد والكليات سنة ١٣٧٣ هـ .
- (٤) تولى إدارة المعهد العالي للقضاء خمس سنوات .
- (٥) مدير الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود حاليا وعضو اللجنة التحضيرية لسياسة التعليم .
- (٦) له عدة مؤلفات منها :
 - تفسير آيات الاحكام .
 - مباحث في علوم القرآن .
 - تاريخ التشريع الإسلامي .
 - كتب الحديث والثقافة الإسلامية بالمرحلة الثانوية.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

لقد فطر الله الناس على توحيده وطاعته ، وأودع في النفس البشرية استعدادها للخير واستعدادها للشر ، ومنح الإنسان القوى المدركة المميزة ، وما كان لهذه القوى أن تدرك الصواب والحق دائما فضلا عن عالم الغيب ، فامتن الله على عباده ببعثة رسله ، بيانا للحق وموازينة وإعدارا لهم وإسقاطا لحجتهم .

١ — فطر الله الناس على توحيده وطاعته ، قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ^(١)
وأصل الفطر : الشق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ ^(٢) .
وتفطرت الأرض بالنبات : إذا تصدعت ، وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبدأهم ، والفطرة : الابتداء والاختراع ، وفي التنزيل العزيز ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ ^(٣) . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي أنا ابتدأت حفرها .

(١) ٣٠ — ٣٢ : الروم .

(٢) ١ : الانفطار .

(٣) ١ : فاطر .

والفطرة ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به ، وقد فَطَرَهُ يَفْطُرُهُ ، بالضم فطرا ، أي خلقه ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ^(١) أي خلقتني ، ومن الحديث « كل مولود يولد على الفطرة » .

والفطرة كذلك : الكلمة التي يصير بها العبد مسلما ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فتلك الفطرة للدين ، والدليل على ذلك حديث البراء بن عازب — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ ، أنه علّم رجلا يقول دعاء إذا نام وقال : « فَإِنَّكَ إِنْ مِتَ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَ عَلَى الْفِطْرَةِ » وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ فهذه فطرة فُطر عليها المؤمن ، وقيل : فُطر كل إنسان على معرفته بأن الله رب كل شيء وخالقه .

وإذا كان الفطر بمعنى الابتداء والاختراع فالفطرة منه الحالة كالجلسة ، والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد . ^(٢)

هذه هي المعاني التي يذكرها علماء اللغة في معنى الفطرة ، ولا يخرج كلام المفسرين في تفسيرهم عن هذا ، وجماعه في معنيين :

* **المعنى الأول :** أن يكون المراد بالفطرة الحلقة والجبلة والطبع فقد خلق الله الناس على حالة تمكنهم من إدراك الحق وقبوله .

(١) ٢٢ : يس .

(٢) أنظر لسان العرب لابن منظور مادة « فطر » .

❖ والمعنى الثاني : أن يكون المراد بالفِطْرة ملة الإسلام التي خلقهم الله تعالى عليها ، فإنهم لو نُحِلُّوا وما خلقوا عليه لكانوا مسلمين موحدين .

وقد توجه الخطاب في صدر الآية لرسول الله ﷺ ، حيث أمره الحق تبارك وتعالى أن يسدّد وجهه ويستمر على الدين الذي شرعه الله له ويثبت عليه مائلا عما سواه ، غير ملتفت إلى غيره ، وأن يلزم الفطرة السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر الخلق على توحيده وعبادته : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ولكن الخطاب يشمل جميع الأمة ، وإنما توجه الخطاب بصيغة المفرد إلى رسول الله ﷺ باعتباره إماما لأُمته ، فأمره عليه الصلاة والسلام يستتبع أمرهم ، ولذا جاء قوله تعالى بعد : ﴿ مَنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ﴾ بصفة الجمع .

ويتأكد الأمر بلزوم فطرته تعالى بالجملة التي وقعت تعليلا له : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ سواء أكانت هذه الجملة خبرا بمعنى الطلب ، أي لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، أم كانت خبرا على بابه ، والمعنى أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في هذا أو المعنى لا صحة ولا استقامة لتبديل الفطرة بما يخل بها من اتباع الهوى وخطوات الشيطان ، فالخبر على بابه وليس بمعنى الطلب .

وذلك هو الدين المستوى الذى لا عوج فيه ، وهو الفطرة السليمة المستقيمة ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، فيصدون عنه ، ويتنكبون طريقه ، وفي مثل هذه الحال يكون الرجوع إلى الله والإنابة إليه واجتنب ما نهى عنه والقيام على الدين ، وعماده الصلاة ، يكون ذلك ضمانا للحفاظ على سلامة الفطرة مرة أخرى . ثم يأتي النهى عن الشرك بما يدل على أن انحراف الفطرة من ضروب الشرك ، وأن المبدلين لفطرة الله تعالى يشركون بالله ، فيختلفون في معتقداتهم وسلوكهم باختلاف أهوائهم وشهواتهم ، واختلاف نحل من يستدرجونهم للضلال والباطل ، ويتفرقون فرقا

تشايح كل منها عقيدتها الزائفة وإمامها الذي أضلها ، فهي فرق شر في مزاعمها الباطلة ، ومذاهبها المنحرفة ، كل حزب منها فرح بما لديه ، يظن أنه على حق ، والحق لا يتعدد ، فإنه صراط الله المستقيم .

وجاءت الأحاديث مبينة لهذا المعنى ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ الآية .^(١)

إن الإنسان يولد على الفطرة الكاملة السليمة ، التي لا تشوبها شائبة تكدر صفوها ، أو تؤثر على جبلتها كما تولد البهيمة مجتمعمة الأعضاء ، سليمة الحواس ، لا نقص فيها ، وإنما يعرض للفطرة ما يعرض لها من تغير وتبديل وزيف وانحراف تحت تأثير العوامل التي تحيط بها من بيئة خاصة كبيئة المنزل ، أو بيئة عامة من بيئات المجتمع ، فالتعبير بالأبوين وأثرهما في التهويد والتنصير والتمجيس رمز للمؤثرات الخارجة على الفطرة ، شأنها في ذلك شأن ما يعرض للبهيمة التي تولد كاملة الأعضاء ، فيطراً عليها ما يطرأ من نقص وفساد ، ولم يذكر الإسلام في العوامل المؤثرة للدلالة على أنه دين الفطرة .

وهذه الفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم بقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفهلكتنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾^(٢)

(١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، وقوله « كما تنتج البهيمة بهيمة » بضم التاء الأولى وفتح الثانية ورفع البهيمة ونصب بهيمة ، ومعناه : كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء ، أي مجتمعمة الأعضاء سليمة من النقص ، لا توجد فيها جدعاء ، وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ومعناه أن البهيمة تلد بهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحصل فيها الجذع والنقص بعد ولادتها .

(٢) ١٧٢ — ١٧٤ : الأعراف .

وقد ذهب المفسرون في بيان هذا الميثاق إلى مذهبين رئيسين :
□ أولهما : أن يحمل هذا على الحقيقة كما جاء في عدة آثار بألفاظ متقاربة وإن تعددت روايتها ، منها ما جاء مرفوعا ، ومنها ما جاء موقوفا ، قال ابن كثير : والموقوف أكثر وأثبت . جاء في هذه الآثار أن الله سبحانه وتعالى مسح ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وأشهدهم على أنفسهم ألسنتهم بربكم ؟ قالوا : بلى .

وكل فعل ينسب إلى الله بسند صحيح يجب الإيمان به والتسليم بوقوعه وإن لم ندرك كنهه أو نعلم كيفيته ، مع إيماننا بأن كيفيات أفعاله تعالى ليست مثل كيفيات أفعال خلقه ، كما أنه لا يشبه خلقه في ذاته ولا في صفة من صفاته ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(١)

ولا غرابة في ذلك ، فإن العلم الحديث عن الأجنة والوراثة ، يقرر أن الناسلات وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل الإنسان وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأضلاع ، يقرر العلم أن هذه الناسلات التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر وتكمن فيها خصائصهم كلها لا يزيد حجمها على « ستمتر مكعب »^(٢)

□ ثانيهما : وثاني هذين المذهبين في تفسير الآية أن يكون هذا من باب التمثيل لخلق الله تعالى الناس جميعا على الفطرة ، فقد نصب الله دلائل توحيده في الأنفس والآفاق وخلق في الإنسان الحواس والقوى المدركة التي يؤدي النظر السليم بها في كائنات الله إلى الإيمان به والاعتراف بوحدانيته ، فجعل تمكينهم من ذلك كالاقرار والإشهاد ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾^(٣)

○ قال القرطبي في تفسير آية الميثاق : وهذه آية مشككة ، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها ، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه ، فقال قوم :

(١) ١١ : الشورى .

(٢) إنظر في ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب في تفسير الآية .

(٣) ١١ : فصلت .

معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض ، قالوا : ومعنى : ﴿ أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ﴾ دلهم بخلقه على توحيده ، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحدا ﴿ ألست بربكم ﴾ أي قال ، فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم والإقرار منهم ، كما قال تعالى في السموات والأرض ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ أي أن هذا كان بلسان الحال لا بلسان المقال .

○ وقال ابن كثير في تفسيره : قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة ،^(١) وقد فسر الحسن الآية بذلك .. ولهذا قال : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ﴾ ولم يقل من آدم .. ﴿ من ظهورهم ﴾ ولم يقل من ظهره .. ﴿ ذريتهم ﴾ أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾^(٢) والشهادة تارة تكون بالقول كقوله تعالى : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾^(٣) وتارة تكون حالا كقوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾^(٤) أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك .. ومما يدل على أن المراد ذلك جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا يجعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أن تقولوا ﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة : ﴿ إنا كنا عن هذا ﴾ أي التوحيد ﴿ غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا ﴾ الآية .

(١) إشارة إلى حديث « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الأنف الذكر .

(٢) ١٦٥ : الأنعام .

(٣) ١٣٠ : الأنعام .

(٤) ١٧ : التوبة .

وفي الحديث القدسي : « يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .^(١)

وأصل الحَنَف في القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإيهامها ، أو ميل كل واحدة من الإيهامين على صاحبها ، والحنيف : المائل ، ثم عُبر بذلك عن الميل إلى الحق ، فالحنيف : المسلم المستقيم الذي يميل عن الباطل إلى الحق ، وعن الضلال إلى الهدى ، والحنيفية : ملة إبراهيم ، وهي ملة الإسلام .

واجتالتهم الشياطين : أي استخفّتهم فجالوا معها في الضلال ، يقال : جال واجتال : أي ذهب وجاء ، ومنه الجولان في الحرب ، واجتال الشيء : إذا ذهب به وساقه .

أي أن الله سبحانه وتعالى خلق عباده بفطرتهم على ملة الإسلام ، فجاءتهم شياطين الإنس والجن وحادت بهم عن هذا الدين الحنيف .
ودلت أحاديث أخرى على أن الفطرة المركوزة في النفس البشرية هي توحيد الله تعالى .

ففي حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أخذت مضجعتك فتوضاً وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم إني أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، واجعلهن من آخر كلامك ، فإن مت من ليلتك مت على الفطرة »^(٢) أي مت على الإسلام .

٢ — وأودع الله في النفس البشرية استعدادها للخير واستعدادها للشر ، إن طبيعة الإنسان في خلقه تشبه طبيعته النفسية ، ولقد كان الخلق الإنساني مزدوجاً في أصل تكوينه من المادة والروح ، فمادته في النشأة الأولى من طين ، أو صلصال من حمأ مسنون ، وفي نسله الممتد من ماء مهين ، هو ماء الزوجين الذي يخرج من

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

صلب الرجل وترائب المرأة ، وروحه التي كانت بها حياته هي الجانب الأسمى الذي منحه الله إياه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رَوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(١) ويقول عز وجل : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رَوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾^(٢)

فالتكوين المادى الجسدى في نشأة آدم أُمِّي البشر يرجع إلى الطين اليابس الذي يصل من ييسه ، أي يصوت ، الطين المتغير من طول مكثته الذي أفرغ على صورة الإنسان ، ويرجع هذا التكوين الجسدى في النسل البشرى إلى نقطة الرجل وبويضة المرأة ، والتكوين الروحي يرجع إلى النفخة العلوية من روح الله ، وهي النفخة التي نقلت هذا التكوين الجسدى إلى الأفق الأعلى في التلقى عن الله والاتصال بالله وأعطته خصائص الإنسانية الكريمة التي أهلتها للخلافة في الأرض ، وكيفية هذا التكوين المزدوج من الأسرار الإلهية التي تؤمن بها ، أدرك العلم شيئاً منها أو لم يدرك .

وشتان بين عناصر الجانبين في هذا التكوين المزدوج ، فعناصر التكوين العضوى تشد الإنسانية إلى ضرورات بقائها في الطعام والشراب والملبس والمسكن وفي الشهوات والنزوات ، وتجذبه إلى أصلها ، إلى الطين أو الماء المهيّن ، وعناصر التكوين الروحي تسمو بالإنسانية إلى الأفق السماوى وتوثيق الصلة بالملا الأعلى ، إيماناً وعبادة واستقامة واستعلاء على جواذب الأرض وترفعاً عن مطالبها الهابطة ، وتطلعاً إلى القمة السامقة في نقاء النفس وطهارة الضمير ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رَوْحِهِ ﴾ والروح من خلق الله ، وإنما أضيفت إلى الله تشريفاً وتكريماً ، كقوله تعالى : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾^(٣) وقوله : ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ ﴾^(٤) وكما

(١) ٢٨ — ٢٩ : الحجر .

(٢) ٧ — ٩ : السجدة .

(٣) ١٣ : الشمس .

(٤) ٢٦ : الحج .

قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وروح منه ﴾^(١) . كذلك كانت طبيعة النفس البشرية ، فهي طبيعة مزدوجة في استعدادها لازدواج طبيعة خلق الإنسان ، يقول تعالى في طبيعة هذه النفس واستعدادها للخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾^(٢) والنفس : الروح ، أو ما يكون به التمييز ، وقد يعبر بها عن الإنسان جميعه ، والمراد بها هنا القوة المدبرة المميزة في الإنسان ، وتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوى السامعة والباصرة والمفكرة . وذلك عام في كل نفس ، والتنكير للتكثير ، هذه النفس الإنسانية زودها الله باستعدادات متساوية للتقوى والفجور ، تكمن في كيانها ، فإما أن يوفقها الله بالتقوى ، وإما أن يخذلها بالفجور ، والفائز هو الذي يركبها بالطاعة ، وينمى استعدادها للخير بالاستقامة ، والخاسر من أخفى هذا الاستعداد الخير بالفجور والمعصية ، فالتركية : التطهير ، والتركية كذلك : الإثناء والإعلاء بالتقوى ، والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور ، وأصل دسّ : دسّ كما قيل في تقضض تقضى .

إن تعاهد بواعث الخير في النفس يجعلها زاكية نامية تفيض بالبر والهدى والخير والتقوى والصلاح ، ولا شيء يطفئ تلك البواعث ويحجب آثارها الخيرة ويخفى استعدادها للنماء واستعلاءها على نوازع الشر كالفجور الذي يطمس معالمها . وفي هذا المعنى جاء قول الله تعالى عن الإنسان : ﴿ ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفقتين ، وهديناه النجدين ﴾^(٣) جعل الله للإنسان من الحواس ما يطلعه على كائنات الله وما أودعه الله من أسرار وفي مقدمتها حاسة النظر ، وخلق فيه أداة التعبير والبيان عما يجول في جوارحه من أفكار ، وهداه النجدين ، والنجدان : هما سبيلا الخير والشر ، من النجد وهو الطريق المرتفع ، فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية لأنها واضحة للعقول وضوح الطريق العالي للأبصار .

(١) ١٧١ : النساء .

(٢) ٧ — ١٠ : الشمس .

(٣) ٨ — ١١ : البلد .

وجاء هذا المعنى كذلك في قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ ^(١) خلق الله الإنسان من نطفة أمشاج تختلط فيها خلية الرجل ببويضة المرأة بعد التلقيح والمشيج في اللغة : الخلط ، والأمشاج : الأخلاط ، واحدها مشج ومشيج ، وقال صاحب الكشف : الأمشاج : لفظ مفرد وليس بجمع ، بدليل أنه صفة للمفرد ﴿ نطفة أمشاج ﴾ ونظيره برمة أعشار ، أي قطع مكسرة ، وثوب أخلاق ، وتحمل كل من الخلية والبويضة عوامل الوراثة من الصفات المميزة للجنين ، ولا يخلق الله هذا عبثا ، ولكنه يخلقه للابتلاء والامتحان والاختبار حتى تظهر آثار ذلك على الإنسان فيما قدره الله عليه ، وقد أعطاه الله ما يصح ، الابتلاء ، وهو السمع والبصر ، وهما كنايةان عن الفهم والتمييز ، فيكون بهذا مستعدا للتلقى والاستجابة والمعرفة والاختبار ، وبين له سبحانه سبيل الهدى والضلال ، سبيل الخير والشر ، سبيل النجاة والهلاك ، حيث خلق فيه وسائل الإدراك ودلائل العقل الهادي ، يستوى في هذا أن يكون شاكرا يستثمر نعم الله عليه في عبادته وطاعته ، أو يكون كفورا يجحد نعم الله ويضل عن سواء السبيل .

وهكذا كانت طبيعة النفس الإنسانية مزدوجة في استعدادها لازدواج طبيعة خلق الإنسان .

٣ — ومنح الله الإنسان القوى المدركة المميزة : تميز الإنسان بأنه حيوان ناطق ، وهم يعنون بالنطق التفكير ، أي أنه مفكر بالقوة ، وهو ما يعبر عنه في الاصطلاح الشرعى بالعقل الذي كان مناطا للتكليف .

وقد نوه القرآن الكريم بالعقل وعوّل عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والمسئولية ، وجاء التنبيه بالرجوع إليه في كثير من الآيات ، فهو ملكة تقوى الإنسان إلى القيام بالمعروف والامتناع عن المنكر ، وكان اشتقاقه من هذه المادة التي تدل في اللغة على المنع ، ومنها أخذ العقل ، لأنه يعقل صاحبه عما لا يليق .

(١) ٢ — ٣ : الإنسان .

فالعقل هو ملكة الإدراك والفهم والتصور والرشد ، والاستفادة من هذه الوظائف العقلية أمر يفرضه الإسلام ، حيث يخاطب القرآن الناس ويشحذ فيهم ملكة التفكير والنظر والتدبر والتعقل ، ويجعل هذا سبيل الاهتداء إلى وحدانية الله ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

ويذكر الله في سورة الروم آيات متتابعة تحث الناس على التفكير في طبيعة تكوين أنفسهم ، وطبيعة هذا الكون كله من حولهم ، فإن هذا وذاك يدل دلالة قاطعة على أن هذا الوجود في نظامه الدقيق المحكم قائم على الحق وأن من مقتضيات هذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرة ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ (٢) .

ويحثهم على السير في الأرض والتأمل في مصائر الغابرين الذين كانوا أولى بأس وقوة ، وذوى قدرة على عمارة الأرض ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ولم يؤمنوا فمضت فيهم سنة الله في المكذبين ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا حضارتهم . ثم تأتي آيات بدء الخلق ومعاده ومصير المؤمنين والكافرين ، تتلوها آيات الله في الحياة والموت ، وفي خلق الإنسان وخلق السموات والأرض ، واختلاف الألسنة والألوان ، ونوم البشر بالليل وسعيهم ابتغاء رزق الله بالنهار ، وظاهرة البرق والمطر وحياة الأرض بالنبات بعد موتها ، وقيام السموات والأرض بأمر الله ، ودعوة الناس للخروج من القبور ، وتقرير البعث والقيامة ، ويتخلل هذه الآيات تذييلها بقوله تعالى :

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٣)

(١) ١٦٣ — ١٦٤ : البقرة .

(٢) ٨ : الروم .

(٣) ٢١ : الروم .

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١)

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(٢)

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٣)

وفي نهاية المطاف نقرأ قول الله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٤).

فَضَرَبَ اللَّهُ الْمَثْلَ لِمَنْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَشَارِكَهُمْ مَوَالِيَهُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرِّزْقِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسَاوَوْهُمْ فِيهِ ، يَخْشَوْنَ أَنْ يَجُورُوا عَلَيْهِمْ خَشْيَتِهِمْ مِنْ جُورِ شُرَكَائِهِمُ الْأَحْرَارِ الْأَكْفَاءِ الْأَنْدَادِ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُهُمْ فَكَيْفَ يُرْضَوْنَ فِي حَقِّ اللَّهِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ؟
إِنَّهُ مِثْلٌ وَاضِحٌ حَاسِمٌ يَعْتَمِدُ عَلَى الْعَقْلِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا مَجَالَ لِلْجِدْلِ فِيهِ
﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٥).

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تنتهي بالتذكير والتدبر العقلي ، لأنَّ العقل خير مرجع للهداية الذاتية في ضمير الإنسان .

كما يأتي الخطاب متوجهاً إلى أولي الألباب في آيات أخرى ، ولب كل شيء خالصة وخياره ، ولب الإنسان ما أودع الله فيه من العقل المدرك الواعي .

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٦)

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(٧)

(١) : ٢٢ : الروم .

(٢) : ٢٣ : الروم .

(٣) : ٢٤ : الروم .

(٤) : ٥٨ : الروم .

(٥) أنظر تفسير هذه الآيات من سورة الروم في كتاب « في ظلال القرآن » للشهيد سيد قطب .

(٦) : ٢٦٩ : البقرة .

(٧) : ١١١ : يوسف .

﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾^(١)

وأولوا الألباب هم الذين استخدموا العقل في أداء وظيفته لتلقى الحكمة والاعتبار بقبصص الماضين ، والاتعاظ بالذكر .

وما أكثر الآيات القرآنية التي تستثير العقل حتى يفكر وينظر ويتدبر ويتذكر ويعتبر مستفيدا من الملكات الذهنية المتعددة .

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾^(٢)

﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾^(٣)

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾^(٤)

﴿وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾^(٥)

﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾^(٦)

ويؤكد الإسلام على إزالة الموانع التي تعطل العقل وتعوقه عن أداء وظيفته ، وعلى رأسها موانع العرف والعادة ، وموانع الاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية ، وموانع الخوف من أصحاب السلطة الدنيوية .

فلا يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آبائه وأجداده
﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾^(٧)

(١) ١٨ : الزمر .

(٢) ١٨٩ — ١٩٠ : آل عمران .

(٣) ١٨٥ : الأعراف .

(٤) ٢٩ : ص .

(٥) ١٢٦ : الأنعام .

(٦) ٩ — ٢ : الحشر .

(٧) ١٧٠ : البقرة .

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾^(١)

ولا يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله خنوعاً لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضي العقل والدين .

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العقاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾^(٢)

ولا يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشداء .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ، يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس المورود ، وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾^(٣) .
﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾^(٤)

ويدعو القرآن الكريم في النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد إلى الاستناد إلى اليقين وإلى الحقائق المدروسة التي يطمئن إليها العقل ، وينحى باللائمة على أولئك الذين يتعلقون بالأوهام والظنون فإنها لا تغني من الحق شيئاً .
﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾^(٥)

(١) : ٢١ : لقمان .

(٢) : ١٦٥ — ١٦٧ : البقرة .

(٣) : ٩٦ — ٩٩ : هود .

(٤) : ٦٦ — ٦٨ : الأحزاب .

(٥) : ٣٦ : يونس — أنظر « التفكير فريضة إسلامية » للأستاذ عباس العقاد .

٤ — وما كان لهذه القوى أن تدرك الصواب والحق دائما فضلا عن عالم الغيب . إن القوى المدركة في الإنسان تدرك الأشياء بالحواس المختلفة ، ويتصورها العقل ويفكر فيها ويحكم عليها ، فيميز بين الجميل والقيبح في المبصرات والمسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات ، كما يميز بين الأمور المعقولة .

ففي المبصرات مثلا يجد الإنسان إعجابا بألوان بعض الزهور والطيور والتكوين الخلقي للمخلوقات ، ويدرك جمال كثير مما تقع عليه عينه من المراتب ويشعر في المقابل نحو أمور أخرى يشاهدها بالقيح وسوء المنظر . وفي المعقولات ينكر الإنسان الجهل ، ونقص العقل ، وفساد الخلق ، وسقوط الهمة ، وضعف العزيمة ، ويمتدح راحة العقل ، وحسن الخلق ، وعلو الهمة ، وقوة العزيمة .

ويرجع هذا التمييز إلى الإحساس الوجداني وما يتبعه من لذة وألم حتى إن القبيح قد يجمل بجمال أثره ، والجميل يقبح بقبح ما يقتدى به .

فالمر قبيح مستبشع ، ولكنه يكون جميلا مقبولا لأثره في علاج المرض ، والسلطان جميل لنفوذه وسيطرته ، ولكنه يكون قبيحا لظلمه وبطشه وفجوره . وأفعال الإنسان الاختيارية يصدق عليها هذا .

فالعقل الذي يجلب مصلحة أو يدفع مضرة يكون جميلا ، والعمل الذي يجز إلى الضرر ويهدر المصلحة يكون قبيحا .

واللذيد يكون قبيحا لسوء عاقبته ، فسماع الأغاني ، وشرب الخمر ، واتباع الشهوة مما فيه لذة ، ولكن هذا يقبح ما فيه من ضياع الوقت والصحة والعقل وإتلاف المال وانتهاك الحرمات .

والمؤلم يكون حسنا لحسن عاقبته ، كتجشم المشاق في كسب الرزق واكتساب العلم والصبر على الطاعة وفعل المعروف وجهاد الأعداء دفاعا عن البيضة وإعلاء لكلمة الحق .

فالعقل يميز بين النفع والضرر ، والخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، وهذا التمييز فيما يدركه العقل يرد عليه أمور ينبغي أخذها في الحسبان .

أ) فالناس يتفاوتون في مداركهم تفاوت وسائل الإدراك عندهم ، وإذا كانت وسائل الإدراك سليمة صحيحة فإنها تدرك الشيء على حقيقته ، وتميز بين الجميل والقبيح ، والنافع والضار ، وإذا كانت هذه الوسائل ضعيفة لسبب خلقي أو لسبب مرضي مزمن أو عارض فإنها لا تدرك الشيء على حقيقته ولا تميز بين الجميل والقبيح ، ولا بين النافع والضار تمييزا صحيحا .

فمن أمراض العين ما يؤثر على الألوان في المبصرات فيراها على غير حقيقة لونها ، وربما رأى الشخص شيئا في ضوء خافت أو على مسافة بعيدة فتصوره بغير صورته . وقد يسمع الإنسان الكلام فيقع في سمعه حروف بعض الكلمات بأصوات أخرى فيفهم الكلام على غير معناه وإن كان حسب سمعه ، يحدث هذا لضعف في حاسة السمع ، أو لمرض يصيبها ، أو لبعد مصدر الصوت عنه .

ب) وتتوقف صحة الإدراك على اعتدال المزاج ، فإذا فسد المزاج وخرج عن سنن الاعتدال خرج العقل عن الصواب ، ووقع في الخطأ .

تفكير الإنسان في حال الرضا يختلف عن تفكيره في حال الغضب ، وتفكيره في وقت راحته يختلف عن تفكيره في وقت تعبته ، وتفكيره في أحواله المعتادة يختلف عن تفكيره في شدة الحزن أو الجوع أو الخوف .

والرغبة الجارحة ذات أثر فعال ، يرى المرء في المال منفعة كبيرة في رخاء العيش والاستمتاع بالطيبات ، والقدرة على الإنفاق ، والوجاهة عند الناس ، ويؤثر عليه في هذا عواطفه نحو أهله وولده حتى يتركهم أثرياء وتشتد رغبته في الحصول على المال فتحجب عنه طريق التفكير الصحيح في وجوه الكسب ، فلا يقتصر على الكسب الحلال ، وإنما يعتمد في الحصول على المال إلى وسائل غير مشروعة من أي وجه كان ، ويستبيح الكذب والغش وأكل المال بالباطل وسائر ما يحرز به كسبا يحقق له الثراء ، فيعتدى على الآخرين بسلب أموالهم ويحرمهم من ثمار كدهم ويرى في ذلك منفعة له .

إن لاعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر في التمييز بين النافع والضار وإن

للأمزجة ، وما يحف بالشخص من أهل وعشيرة تأثيرا بالغا على ما يحكم به العقل من خطأ أو صواب .

ج (وأهواء الإنسان وشهواته تتغلب عليه وتشل قدراته الفكرية فلا يكون إدراكه للأمور إدراكا مجردا من المؤثرات ، إنما يكون هذا الإدراك متأثرا بغلبة الهوى ، أو نزوة الشهوة ، فلا يرى الشيء إلا بمنظار هواه ولا يبصر فيه إلا ما يروى ظمأ شهوته ، وهذا يجعل تفكيه جائرا ، ينأى عن الحق ، ويبعد عن الصواب ، فيستمرىء الباطل ، ويتمادى في الخطأ ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

د (ومهما كانت وسائل الإدراك صحيحة خالية من المؤثرات فإن الإنسان يتنسى فكره إلى أمد ، ويقف عند غاية محدودة ، وليس في استطاعة العقل البشرى أن يدرك الأهداف البعيدة ويهتدى فيها إلى الحق والصواب .

ويقتصر هذا الإدراك على ما يتصل بالشخص من منفعة ومضرة ، أو لذة وألم ، أو ما يتصل به وبالأقربين من حوله ، ولا يتجاوز هذا إلى مصلحة الجماعة الكبرى ، أو إلى مصلحة الجماعة العامة ، ومصلحة الجماعة هي الجديرة بالنظر الصائب ، والفكر الثاقب ، والعقل الرشيد ، ولو كان في هذه المصلحة ما يضر بشخص أو أشخاص .

وكثيرا ما يضر النظر العقلى بصاحبه ويجره إلى ما لا تحمد عاقبته ، لا عن قصد منه ، وإنما لسوء تقديره ، وخطأ تفكيه ، وزلة عقله ، فيقع ما لم يكن في حسبانته . ولو أن كل إنسان هداه تفكيه إلى الصواب لوصل إلى بغيته ، ونجح في بلوغ قصده ، وما شاهدنا من أرباب المهن والتجارة من تبور بضاعته وتكسد تجارته ، وما وجدنا أحدا يبوء بالفشل ، إذ لا يرتضى عاقل أن يضر بنفسه مختارا .

هـ (وتعجز العقول عن معرفة الضوابط السلوكية التي تحدد علاقة الإنسان بأخيه ، حفظا للحقوق ، وصيانة للحرمان ، وضمانا لاستقامة موازين الحياة الثابتة ، حتى

تستثمر مواهب الناس وقدراتهم بما فيه خيرهم وسعادتهم ، في ضلال الأمن والعدالة والرخاء .

وتعجز العقول كذلك عن إدراك أسرار العبادات مما لا يعرف العقل سره ، لأنه غير معقول المعنى ، لماذا كانت الصلوات الخمس ؟ ولماذا كانت في هذه الأوقات ؟ ولماذا تفاوتت في عدد ركعاتها ؟ ولماذا كان هذا العدد دون غيره ؟ ولماذا كانت بهذه الصورة دون سواها ؟

وهكذا الشأن في تحديد الأموال التي تزكى ، ونصاب زكاتها ، وتحديد الصيام المفروض وكيفيته ، وكيفية الحج ومناسكه التي لم تدرك إلا بالشرع ، وقلما يفهم لها معنى معقول .

ومعرفة عالم الغيب وما فيه من بعث وحساب وصراط وميزان وجنة ونار ، ومعرفة الملائكة ووظائفهم ، والرسل وصفاتهم ، كل هذا وما يتصل به كيف يستطيع العقل أن يدركه ؟ وهو عالم مجهول عنده ما لم يصله خبر صادق عنه .

لهذا ونظائره كان العقل الإنساني قاصرا عاجزا ، وكان في حاجة إلى هداية تجنبه المزالق ، وترشد قوى إدراكه إلى الصواب ، وتطلعه على ما لا قبل له بعلمه .

٥ - وقد امتن الله على عباده ببعثة رسله بيانا للحق وموازينه وإعذارا لهم وإسقاطا لحجتهم : لم يدع الله تعالى الناس لفطرتهم ، فإن هذه الفطرة يعرض لها ما يفسد جبلتها ، وتغشاها غواشي الحياة المختلفة التي تتجاذبها هنا وهناك فتقع فريسة لها ، تتأثر بها وتجنح نحوها ، وتحرف عن جادة الحق ، وتحيد عن الصراط المستقيم ، وإنما تظل الفطرة سليمة إذا تركت وشأنها دون مؤثرات الحياة وعوارضها ونزوات النفس وشهواتها .

وفي الفطرة مقياس الخير والشر في إحساسها الذي ينبع من داخل النفس ويحتلج بين الجوانح ، ولكن هذا لا يحول دون الوقوع في الإثم ، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سئل عن البر والإثم فقال : « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » وجاء هذا الحديث عن الإمام أحمد بأن

رسول الله ﷺ أجاب السائل بقوله : « استفت قلبك واستفت نفسك ، ثلاث مرات ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

فالنفس السوية تفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، فتشرح للحق والخير ، وتجحد الريبة والشك في الباطل والشر .

ولم يدع الله تعالى الناس لعقولهم مع ما في طبيعتهم من الاستعداد للخير والاستعداد للشر ، فإن العقل البشري يعجز عن إدراك كثير من الأمور ، ولا يبرأ من الهوى ، ولا يكون حكمه صائبا في كل حال ، فهو في حاجة إلى معين يهديه ويحول بينه وبين زلاته وشططه ، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى الرسل يدل على ذلك ما يأتي :

أولا: الدليل الاعتقادي :

يجمع العقلاء في تاريخ البشرية على أن هذا العالم البديع الصنع في كائناته التي لا تحصى ونظامه المحكم الدقيق يدل دلالة قاطعة على وجود مبدع صانع خلقه ، وأحكم صنعه ، ودبر شئونه على هذه الحال التي تفوق تصور البشر فلم يوجد بمحض الصدفة ، كما أنه لم يوجد نفسه ، وإنما يختلفون في تسمية هذا الموجد الخالق ، ولا يدركون صفاته ، ولا ما يجب في حقه .

والدين يقرر أن هذا الموجد الخالق هو الله تعالى ، فهو خالق كل شيء^(١) . ولا سبيل للعقل إلى معرفة صفات الله وما يجب في حقه ، وسبيل ذلك هو السمع وحده بالنقل عن الرسول الذي يصطفيه الله لإبلاغ الرسالة ، ويؤيده بالمعجزات الدالة على صدقه .

واتفقت كلمة العقلاء مع اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم على أن النفس البشرية لا تزول زوالا مطلقا بالموت إلى غير رجعة ، وإنما يكون لها نوع من البقاء ، واختلفوا في تصويره وفي طرق الاستدلال عليه .

(١) قال تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ ٣٥ — ٣٦ الطور .

فمن قائل : بالتاسخ ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عند ما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال . **ومن قائل :** إنها إذا فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذاتها أو ما به شقوتها .

ويسود شعور عام لدى البشرية كلها بحياة بعد هذه الحياة الدنيا التي يعيشها الناس ، وأن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود ، بل ينتهى عمره ويموت ثم يكون حيا باقيا في طور آخر وإن لم يدرك كنهه ، ولا يستثنى من ذلك سوى الدهريين الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ ^(١) وهي نظرة سطحية قصيرة لا تتجاوز ظاهر الأمر الذي يشهدونه ولا تبحث عما وراء ذلك من أسرار فمن أين جاءت إليه الحياة الدنيا ؟ وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ؟ إن هذا ظن غامض ، لا يقوم على تدبر ، ولا يستند إلى علم ولا ينظر إلى ما وراء ظاهرة الحياة والموت من سر .

وإذا كنا في عالم الشهادة نستعمل عقولنا في تقويم معيشتنا القصيرة الأمد ، ونتلقى من العلوم ما ينمى أفكارنا ، ويعيننا على استقامة حياتنا ، وإدراك رغباتنا ، ثم لا نلبث حتى نجد هذا غير كاف في الاستقامة على المنهج الأقوم ، فنعود إلى تعديل هذه الأفكار وتصحيحها مرة بعد أخرى ، إذا كنا في عالم الشهادة كذلك فكيف تصل عقولنا وأفكارنا إلى إدراك ما في عالم الغيب ؟ وإلى معرفة ما يكون فيه ، وكيف تكون الحياة الجديدة الباقية ؟ إن طرائق النظر والاستدلال الفكرى لا تقود الناظر إلى العلم بذلك علم اليقين حتى يعتقد ويؤمن به ، وهو مجهول لديه ، والنظر في المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية .

فاقتضت حكمة الصانع الحكيم الذي خلق الإنسان وعلمه البيان أن يصطفى من عباده من يشاء وأن يخصصهم بصفات تميزهم ، وإن يوحى إليهم من أمره تعالى ما يشاء أن يعتقدوا العباد ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه ، بما تحتمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد عن متناول أفهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع تحدد

لهم ما فيه تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، وإن علموه من داخل نفوسهم في إجماله ، ثم يؤيد الله هؤلاء الذين يصطفيهم لإبلاغ تلك الأمانة بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الإقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين ، يبشرون من آمن بهم واتبع هديهم بما وعد الله به المؤمنين من خير ومثوبة ، وينذرون من كفر بهم وتنكب طريقهم بما توعدهم الله به من شر وعقوبة .

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه ، وأبدع في كل كائن صنعه ، ووسعت رحمته كل شيء يكون من رحمته بمن خلقه في أحسن تقويم ، وهياً له وسائل الإدراك والمعرفة ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط والضلال .^(١)

ثانيا : دليل العدل وموازن الحق :

الإنسان كائن اجتماعي ، فهو في حاجة إلى غيره ، كما أن غيره في حاجة إليه ، ينبىء عن هذا الشعور النفسي ، والواقع الاجتماعي .

يشعر كل إنسان من داخل نفسه أنه لا يستطيع أن يعيش في عزلة عن غيره ، ينقطع فيها عن الناس ، ولا يتصل بأحد منهم ، فالعزلة قاتلة له ، والوحدة وأد لطبيعته ، وإذا عاش فترة قصيرة بعيدا عن الناس منقطعا عن الاتصال بهم أحس بالوحشة ، واشتدت مخاوفه ، وتبرّم من الحياة نفسها كأن الموت يطارده .

وفي طبيعة خلقه ضرورة اجتماعية ، فقد وهبه الخالق القدرة على الكلام ، وهذه الخاصة وحدها من أقوى الدلائل على حاجته إلى من يتكلم معه ، لأن اللسان أداة التفاهم ، وبه يكون التعبير عما في النفس ، فمع من يتفاهم إذا كان يعيش وحده ؟ ولمن يعبر إذا كان في عزلة ؟

وواقعه الاجتماعي يحتم عليه الاتصال بالآخرين ، فإن مطالبه كثيرة ، ومنذ ولادته يكون عاجزا عن الوفاء بضرورات حياته ، وليس شأنه كشأن الحيوانات الأخرى التي

(١) انظر « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبدة ص : ٩٦ دار المعارف بمصر .

ألهمت سبل عيشها ، وكفاها هذا الإلهام مدة صغرها على قصرها ، ولازمها ذلك بعد في حياتها ، فإن الإنسان يولد ولا قدرة له على الحركة ، وهو في حاجة إلى غذاء جسمي ، وتعهده نظافته ، وتفقد أحواله للمحافظة على سلامته ، والعمل على راحته ، ويستمر هذا فترة طويلة من الزمن تمتد عدة سنين ، حتى يستطيع أن يخدم نفسه .

وإذا شب عن الطوق وقوى ساعده ، لازمه العجز عن الوفاء بمطالبه ، فلا يستطيع وحده أن يزرع ويحصد ، وأن يغزل وينسج ويحك ثيابه ليلبس ، وأن يصنع طعاما يقوته ومسكنا يؤويه ، وكلما تطورت حياته اتسعت مطالبه ، وتشعبت حاجته ، فلا يقف في تعاونه مع غيره عند أهله وعشيرته كما كان حاله في عصره الأول ، بل زادت دائرة هذا التعاون ، وعاش في مجتمع أكبر ، يندل فيه كل فرد ما عنده من قدرات للجماعة ، وتبذل الجماعة لكل فرد فيها ما لديها من ثمار كدحها ونتاج أيديها وعقولها .

ويوشك العالم اليوم في العصر الحديث أن يكون مجتمعا واحدا لو استطاع ، لتداخل مصالحه ، وترباط مطالبه ، واتساع حاجاته .

وليست الحياة الإنسانية كحياة النحل والتمل يكفي فيها الإلهام الغريزي لتنظيمها ، وتحقيق تعاون أفرادها ، والقيام بوظائفها ، فإن الحياة الإنسانية تتميز بالعقل والتفكير والتدبير والاختيار ، فلا يجدى فيها هذا الإلهام ، ولا يستقيم أمرها إلا بانتظامها في سلك واحد ، عن فكر ونظر .

وفي الإنسان غرائز شتى ، كحب النفس ، وحب التملك ، وحب السيطرة ، وهذه الغرائز تصطرع فيها القوى البشرية ، ويسعى كل إنسان في المجتمع البشري إلى أن يكون حظه أوفر من غيره ، وأن يستأثر بالمنفعة واللذة ، وأن تكون له الغلبة والقهر ، وقد نشأ من ذلك التخاصم والتشاجر والعداء والمقاتلة في حياة الأفراد وحياة الأمم ، ويشتد التنافس في هذا المضمار فتضيع الحقوق وتهدر الحرمات وتكون السيطرة للأشد الأقوى ، ولا يقف الصراع البشري عند حد ، بل يتتابع في حياة كل قبيل بكل جيل ، وهذا يجعل الحياة الإنسانية جحيما لا يطاق ، ولا علاج لذلك إلا أن يكون هناك ضوابط سلوكية محكمة وموازن للحق ثابتة ، تقيم العدل

بين الناس ، فتتصف المظلوم من الظالم وتعيد الحق إلى نصابه .
فمن الذي يصنع الضوابط السلوكية وموازن الحق لتحقيق العدل بين الناس ؟
قد يقول قائل : إن الناس عقلاء ، ولا يعدم المجتمع البشرى أن يجد من علمائه
ومفكره وعباقرته من يسن الأنظمة والقوانين لضبط السلوك وقيام العدل ، وهذا حق
من وجه .

ولكن العقل البشرى بطبيعته لا يحيط بكل شيء علما ، وإذا أدرك الصواب في
حالة فإنه يخطيء في حالات ، وأولئك النوابغ المفكرون الذين يقررون موازين الحق لن
ترقى عقولهم إلى درجة تجنبهم الخطأ ، فإنهم ليسوا معصومين من الزلل .
والعقل البشرى من ناحية أخرى يتأثر في تفكيره بالعواطف المختلفة ورجال الفكر
في أي عصر لا يتجردون من هذه العواطف تجردا كاملا ، فلا تكون القوانين التي
يضعونها منزهة عن كل عيب ، بل إن شواهد الحال في حياة الأمم تدل على أن
واضعي القوانين يحرصون على تحقيق أهداف يرومونها ، فيصوغون قوانينهم لتحقيق
هذه الأهداف حتى يكون نظام الحكم منسقا معها ، ولذا اختلفت من أمة
لأخرى ، وكانت عرضة للتغيير والتبديل ، كلما ذهب قوم جاء آخرون بأهداف
جديدة وصاغوا قوانينهم بفكر جديد .

ولو سلمنا جدلا أن العقلاء النوابغ يستطيعون الوصول إلى موازين ثابتة تحقق
العدل بين الناس فإن غيرهم لا يسلم لهم بذلك فالناس متفاوتون في مواهبهم
وأفكارهم ونزغات أهوائهم ، ويأبى أرباب العقول أن يخضع بعضهم لبعض ، ويدعى
كل أنه أرقى من الآخر فكرا وأسمى عقلا ، فلماذا يخضع له عن اختيار منه ؟ إن
خضوعه لا يكون إلا بالقهر والغلبة .

فلا بد إذا من قوة قاهرة فوق قدرة البشر ، تقيم موازين الحق لتحقيق العدل بين
الناس ، حتى يشعر جميع العقلاء أنهم فيها سواء ، وبهذا يكون خضوعهم ، فإن
الناس جميعا يتفقون على الإذعان لما فاق قدرتهم ، وعلا متناول استطاعتهم .
لذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يختار من بين أفراد النوع الإنساني
مرشدين هادين ، يميزهم بخصائص في أنفسهم ، ويؤيدهم بالمعجزات التي تهر

العقول ، وتأخذ بالألباب ، ويوحى إليهم بموازين الحق والعدل التي تدهش عظمتها المدارك ، فلا يملك الناس إزاءها إلا الإذعان والقبول لها ، لأنها شرع إلهي قاهر ، وليست من وضع البشر ، وأولئك هم المرسلون .

قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (١)

ثالثاً : دليل الإعذار وإسقاط الحجة :

إذا كانت الفطرة لا تكفي في استقامة الإنسان على جادة الحق لما يعترها من ركام العادات والأعراف والتقاليد .

وإذا كان العقل لا يكفي لهداية الإنسان لما فيه من قصور ولما يعرض له من نزوات الهوى والشهوة .

فإن هذا وذاك قد يجد الإنسان فيه مجالا للاعتذار عما وقع فيه من خطأ ، وما ارتكبه من إثم .

لذا شاء الله تعالى رحمة منه أن يرسل إلى الناس الرسل مبشرين ومنذرين لاستنقاذ فطرتهم من ركام الإلف والعادة ، وتحرير عقولهم من أسر الأهواء والشهوات .

إنه مع وجود الفطرة التوافة إلى الاتصال ببارئها والإذعان له ، ومع هبة العقل الذي أوتى القدرة على النظر والتفكير والتدبر ، فإن الله سبحانه — بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها فتعطلها أو تفسدها أو تطمسها أو تدخل في حكمها الخطأ والشطط — قد أعفى الناس من حجية الفطرة وحجية العقل ما لم يرسل إليهم الرسل ليستنقذوا دلائل الفطرة ودلائل العقل مما يعترها من عوامل الفساد ، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي في رسالتهم تلك الدلائل ، فتصح أحكامها ، وتستقيم على ضوابط شرع الله ، وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع ، أو تسقط حجتها وتستحق العقاب ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (٢)

(١) : ٢٥ : الحديد .

(٢) : ١٦٥ : النساء .

ولو علم الله أن العقل البشرى الذى وهبه للإنسان يكفى في أن يهتدى به وأن يدرك مصلحة حياته لوكله إلى هذا العقل وحده ، يبحث عن دلائل الهدى ، ويرسم لنفسه المنهج الذى تقوم عليه حياته حتى تستقيم على الحق والصواب ، ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ ، ولما جعل حجته على عباده لإرساله الرسل إليهم ، وتبليغهم عن ربهم ، ولما جعل حجة الناس عنده سبحانه وتعالى عدم مجيء الرسل إليهم ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ولكن لما علم الله سبحانه وتعالى أن العقل الذى آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط ، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة لما علم الله سبحانه وتعالى هذا اقتضت رحمته أن يبعث للناس بالرسول وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ ﴿ وما كنا معذنين حتى نبعث رسولا ﴾ .^(١)

فلا يؤاخذهم بالفطرة التى خلقهم عليها أو بعهد الفطرة الذى أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم ولا يؤاخذهم بموجبات العقل ومقتضيات النظر في آياته الكونية الماثلة في الوجود ، وإنما يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ليعذر إلى عباده قبل أن يأخذهم بالعذاب .^(٢)

(١) ١٥ : الإسراء .

(٢) اختلف العلماء في أولاد المشركين على أقوال :

أحدها : أنهم في الجنة ، واحتجوا بما رواه أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « المولود في الجنة » وما جاء في صحيح البخارى من أن رسول الله ﷺ رأى في المنام مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، واختلف هؤلاء ، فمنهم من يجعلهم مستقلين في الجنة ومنهم من يجعلهم خدما لأهل الجنة . الثاني : أنهم مع آبائهم في النار ، لما رواه أحمد من أن رسول الله ﷺ قال : « هم تبع لأبائهم » وفي لفظ « هم مع آبائهم » .

الثالث : التوقف فيهم ، لما في الصحيحين من أن رسول الله ﷺ سئل عن أطفال المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

الرابع : أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار وانكشف علم الله فيهم بسابق الشقاوة ، لما جاء في عدة أحاديث من أنه يؤتى بنار يوم القيامة فيؤمرون بدخولها ، فمن كتب عليه السعادة دخلها ، ومن كتب عليه الشقاوة لم يدخلها .

فوظيفة العقل أن يتلقى عن الرسالة وأن يفهم ما يتلقاه عن الرسول وليست وظيفة العقل أن يكون حاكما على الدين من حيث الصحة أو البطلان ، والقبول أو الرفض ، بعد صحة صدوره عن الله .

وإذا قلنا إن الإسلام يخاطب العقل فإننا نعني بهذا أن الإسلام يوقظه ويوجهه ويقيم له منهج النظر الصحيح ، ولا يعنى هذا أن العقل يحكم بصحة الدين أو بطلانه ، وقبوله أو رفضه ، فمتى ثبت النص كان هو الحكم وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه ، سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه .

ومهمة العقل أن يفهم ما الذي يعنيه النص وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح ، والمدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل ، فهذا النص من عند الله والعقل ليس إلهاً يحكم بالصحة أو البطلان ، والقبول أو الرفض لما جاء من عند الله .

لقد علم الله أن قدرات العقل تنوشها الشهوات والنزوات ، وأن الدلائل المبتوثة في تضاعيف الكون وأطوار النفس قد يحجبها الغرض والهوى ويحجبها الجهل والقصور ومن ثم لم يكل إلى العقل البشرى تبعة الهدى والضلال إلا بعد الرسالة والبيان ، ولم يكل إليه بعد البيان والاهتداء وضع منهج الحياة ، إنما وكل إليه تطبيق منهج الحياة الذي يقرره له الله ، وترك له ما وراء ذلك بيدع فيه ما شاء ، والاجتهاد يكون في فهم النص الجمل الذي يحتمل أكثر من معنى أو في تطبيق مدلول النص القطعي على الجزئيات المتجددة في الحياة .^(١)

وأخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم عن حال المكذبين ، وأنه تعالى أعذر إليهم إذ أرسل إليهم رسوله ، فقال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾^(٢) فقطعت عليهم الرسالة الحجة ولم يعد لهم من عذر بعدها .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله من أجل

(١) أنظر تفسير آية النساء ذات الرقم ١٦٥ في كتاب « في ظلال القرآن » للشهيد سيد قطب .

(٢) ١٢٤ : طه .

ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفي لفظ « من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه » .^(١)

وبعد :

لقد فطر الله الناس على توحيده وطاعته ، وأودع في النفس البشرية استعدادها للخير واستعدادها للشر ، ومنح الإنسان القوى المدركة المميزة وما كان لهذه القوى أن تدرك الصواب والحق دائما فضلا عن عالم الغيب ، فامتن الله على عباده ببعثة رسله بياناً للحق وموازينة وإعدارا لهم وإسقاطا لحجتهم .

والعالم اليوم يهيم على وجهه باسم الحضارة والعلم ، وقد تملكه الغرور بما وصل إليه من معرفة ، وما أدركه من دقائقها ، فغزا الفضاء ، وابتكر وأبدع ، ولكنه يسير على غير هدى ، يتخبط في دياجير المذاهب والأفكار والنظم والقوانين ويتسابق في اختراع وسائل التدمير ، ويوشك أن تندلع فيه نار حرب ذرية أو نووية فتأتي على بنيانه من القواعد ، وتحوله إلى خراب ودمار .

وبيد المسلمين وحدهم مشعل الهداية الربانية التي بعث بها خاتم المرسلين محمد ﷺ ، فأنقذ البشرية من براثن الشرك والجهالة وأخرجها من الظلمات إلى النور ، وأرسى دعائم الحضارة الإسلامية الفاضلة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً . فهل آن لأمة الإسلام بعد أن حادت عن الجادة أن تتيب إلى ربها وتستقيم على صراط الله المستقيم ؟ حتى تعود لها مكانتها ، وتقود الإنسانية إلى الهدى والخير والحق من جديد ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ ؟^(٢) هذا ما نرجوه وما ذلك على الله بعزيز .

(١) متفق عليه ، والله تعالى يوصف بالغيرة عند أهل السنة والجماعة على وجه لا يماثل فيه صفة المخلوقين ولا يعرف كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه كما يقول في الاستواء والنزول والرضا والغضب وغير ذلك من صفاته سبحانه .

(٢) ١٤٣ : البقرة .